جذور التراث الشعبي الفلسطيني منذ أقدم العصور

الدكتور خالد الناشف

أبدأ كلمتي بملاحظة ضرورية وهي أن ما سأذكره اليوم هو ليس عرضاً لمعلومات أو تفسيراً لها، بل هو مجموعة من الأفكار مدعومة ببعض الأمثلة ربما كانت مفيدة لتحديد طبيعة موضوع باعتقادي أنه غير واضح لدينا كفلسطينيين وغير واضح لدى القسم الأكبر من البحاثة في الغرب أو من لديه اهتمام يتعدى إطار السياحة في بلادنا أو المعارف الشعبية المتوفرة في بلادهم.

يضاف إلى ذلك أن عدم الوضوح السائد عندنا هو ناتج عن وضع اجتماعي وحضاري خاص، بينما في الغرب هو نتيجة قصور في المفاهيم، وعلى الأغلب أيضاً بسبب أيديولوجية معينة في تقييم الذات والآخرين.

موضوعي كما فهمته عندما طلبه مني الأستاذ عبد العزيز أبو هدبا هو الاستمرارية في التراث الشعبي الفلسطيني، وبالتحديد كيف يمكن ربط بين وضع حالي ووضع سابق، وبالنسبة لي، ما يقع في العصور القديمة، أي قبل الميلاد أو فترة ميلاد المسيح.

هذا الموضوع مرتبط أو يحب البعض أن يربطه بقضية مصطنعة حتماً لها تأثير كبير في مجالات التبرير السياسي، لا أرى أنني بحاجة إلى التفصيل فيها، وهي اختصاراً "الحق بالأرض"، وذلك بسبب بسيط أنه لا ينبغي على الفلسطيني أن يدخل في نقاش حول مسألة بديهية، وهي أنه كان على هذه الأرض منذ ألاف السنين، والواقع السياسي شيء آخر هو ليس موضوعي هنا.

ولا داعي أيضا لتحديد مفهوم "التراث الشعبي" كالفكر الشعبي أو التراث المادي كما يفهمه عامة الناس (المصطلحات الدالة عليه، ارتباطه بممارسات غير عملية). وعوضاً عن ذلك أوضح بشكل مبدأي ما هو المقصود بهذا التفريق، وذلك فيما يخص المصادر التي يمكن أفادتنا في تحديد شكل التواصل بين التراث القديم والحديث. فإذا استثنينا شكلياً مجموعة من المصادر كالوثائق الاقتصادية والإدارية، فإنه بالنسبة للمصادر الآثارية والكتابية القديمة، أو أي مصادر على الإطلاق، جانبان فكريان: جانب يعكس الفكر السائد في عصر ما، وجانب يعكس التراث الشعبي والتراث الشعبي مرتبط بالفئات المنتجة في المجتمع، كالفلاحين والبدو أو الجماعات المتنقلة، إن كان ذلك قديماً أو حالياً، ولو أخذنا مثالاً حديثاً كالعمال في المجتمعات المتقدمة. أما الفكر، وهو متعالي أو فلسفي، فهو ما تتحلى به الفئات غير المنتجة أو تلك المنتجة ثانوياً من تصورات حول نفسها ووضعها في المجتمع وبشكل أشمل العالم حولها، ويدخل ضمن الفئة الأخيرة إنتاج مادي خاص (كالبضائع الرفاهية) والإنتاج الفكري أو الثقافي.

وهذا التفريق في غاية الأهمية، لأنه يفتح أعيننا أمام حقيقة ما زالت مجهولة لدى القسم الأكبر من مثقفينا، وهي أنه لم يحصل أي تهجير للفئات المنتجة في فلسطين، إن كان ذلك في القرن الثامن عندما فتح سرجون الأشوري ساماريا، عاصمة إسرائيل القديمة، أو في عام ٥٨٦ عندما فتح نبوخذ نصّر البابلي القدس، عاصمة يهوذا، أو عام ٧٠ بعد الميلاد، عندما دمّر الرومان المعبد. فالتهجير الحاصل قد أصاب مجموعات مختلفة من الفئات غير المنتجة أو المنتجة ثانوياً، كالملك أو حاشيته والكهنة، وعليّة القوم، وربما بعض الحرفيين. وبالمناسبة لم يقم البابليون بقتل آخر ملوك يهوذا وهو يوخانين، بل تركوه يعيش هو وعائلته جنوب العراق كما يستشف من نصوص مسمارية عثر عليها هناك.

إذا استوعبنا هذا التفريق أدركنا أن جذور التراث الشعبي الفلسطيني تعود إلى ألاف السنين، وتعكسها أيضاً مصادر كتابية كالعهد القديم، أو ما يسمى عندنا بالتوراة.

وأبدأ بالحديث عن العهد القديم والعهد الجديد، وهنا استعمل مصطلحين استمدّا من التراث المسيحي. والأفضل استعمال "الكتاب" بالنسبة للاثنين، كما جاء في القرآن مثلاً، وتجنب كلمة توراة إلا إذا ساد استعمالها، وفهم ليشمل أكثر من الخمسة أسفار الأولى من العهد القديم.

يشكل الفكر المتعالي جانباً مهماً من العهد القديم. إلا أن هذا المصدر يعطينا في الوقت نفسه كمية هائلة من المعلومات حول التراث الشعبي والحياة اليومية وهي موزعة كما يلي:

الحياة البدوية للإسرائيليين القدماء قبل أو أثناء اندماجهم في المحيط الكنعاني من جهة والحياة اليومية في الريف من جهة أخرى، وذلك كما يعكسها الفلاحون، إن كانوا اختلطوا بالإسرائيليين القدماء أم لا. يختلف الوضع بالنسبة للعهد الجديد، فالفكر الفلسفي هو السائد والقليل ما يمكننا استخلاصه من هذا المصدر حول الحياة اليومية في عصر المسيح. وهذا له علاقة بطبيعة الأناجيل التي كانت تركز على حياة المسيح وأقواله.

وينبغي عليّ الإيضاح بالنسبة لما أعنيه بالفكر المتعالي أو الفلسفي، أعني بذلك التأمل في قضايا شمولية كالخالق والعالم وعلاقة الإنسان الفرد بمجتمعه وبالطبيعة والأخلاق، وقد انتقل هنا التراث من العهد القديم إلى العهد الجديد، واستوعبته الحضارة الغربية إلى حد معين في تطوير اتجاهات فكرية قد تكون، إلى جانب التراث اليوناني، الأسس التي اعتمد عليها التقدم في الغرب. فالكثير من القضايا التي ما زالت الفلسفة تناقشها حتى اليوم توجد في العهد القديم بشكل حكاية أو موعظة أو حكمة. ويأخذ هذا الأسلوب في عرض القضايا الفلسفية شكله المتطرف في العهد الجديد. فعلى سبيل المثال ليست قصة خلق الإنسان في العهد القديم، في جانب منها، إلا عرضاً لمشكلة التناقض بين الإنسان والطبيعة، أو أن الإنسان بحاجة كما هو الحال بالنسبة للمصادر الكتابية، فالأمر ينطبق على الآثار، وإن كانت صامتة: فهناك القصور والأماكن الدينية وبيوت الضيافة والمواد الاستهلاكية الرفاهية. ولا شك أن هذا النوع من الشواهد يعكس فكر الفئات المنتجة ثانوياً التي تخدم مصالح الطبقة المتنفذة وغير المنتجة في المجتمع. وهو في النهاية تعالٍ فكري للتفريق عن الآخرين وضرب من ضروب الدعاية للتأثير على فئات أو شعوب أخرى. فتلك الصروح كان قد بناها منتجون ثانويون، وكذلك الأمر بالنسبة للقطع الاستهلاكية المميزة. وإن كان الأمر مفاجئاً أذكر للمقارنة أن البيوت الإسرائيلية اليوم يبنيها الفلسطينيون. وهناك البيوت الريفية وتجمعات البدو والأشياء المتعلقة بالحياة اليومية عند الفئات المنتجة. وبالإمكان رؤية هذا التفريق بالنسبة للفخار، فالآثاريون يتكلمون عن الفخار الجيد وغير الجيد، والملوّن وغير الملوّن والمستورد وغير المستورد، وذلك المستعمل للأغراض اليومية.

بالنسبة للمصادر الكتابية فإن ما حفظه لنا التاريخ هو نتاج الفئات المتنفذة في المجتمع بشكل أقل أو أكثر، والقليل ما نعرفه بشكل مباشر عن نظرة الفئات المنتجة كالفلاحين؛ وهنا تساعدنا الآثار إذ تحول الاهتمام في هذا الحقل من البحث عن الصروح ومحتوياتها من الأشياء الرفاهية إلى التركيز على بقايا أماكن تجمعات الفئات المنتجة، أي ما يقابل القرى الفلسطينية.

إلى جانب المصادر الكتابية هناك الوثائق الاقتصادية أو الإدارية المحفوظة في المراكز الإدارية والقصور، وهذا بالطبع لا يعكس الفكر الفلسفي بأي من معانيه، ولكنها تعطينا بشكل غير مباشر بعض الإشارات حول الوضع في الأرياف. وأبدأ بهذا النوع من المصادر كأمثلة لما يمكن استخلاصه حول التراث الشعبي لسكان فلسطين في العصور القديمة.

لنأخذ نصوص ساماريا، عاصمة إسرائيل القديمة في القرنين التاسع والثامن، وهي عبارة عن وثائق اقتصادية من أوائل القرن الثامن تسجل الوارد من الريف للزيت والخمر. ولو قارنا أسماء الموردين، أي المنتجين الفلاحين، لوجدنا أنه يكثر فيها أسماء الآلهة المحلية كبعل وابل. أما في أسماء المستلمين، أي أولئك الإداريين في القصور، فتكثر عناصر لها علاقة بيهوه، هذا بالرغم أن الإسرائيليين القدماء كانوا في هذه الفترة قد اندمجوا كلية مع المجتمع الكنعاني، ولا يعرف تماماً إلى أي مدى كانت ديانة التوحيد منتشرة في المدن. والديانة الرسمية كانت ضعيفة في الأرياف حتى فترة طويلة، وربما، فيما لو تذكرنا ظاهرة المقامات، في الفترات الحديثة.

هناك جزء من الأساطير الكنعانية قد انتقل إلى التراث الشعبي، وبالتحديد الأساطير الاوغاريتية، هذا إذا اعتبرنا الأوغاريتية أنها تنتمي إلى الفرع من اللغات السامية الشمالية الغربية المسمى بالكنعانية. وأذكر هنا الأسطورة أو نسيج الأساطير المرتبط ببعل وعنات، وبالتحديد بعل ومقابلة أدونيس. ونحن نعرف أن شخصية النعمان كما طورت في التراث الشعبي الحديث هي المقابل لبعل. وفي كتاب "الروح الأخضر" الذي قام بتأليفه فلسطيني بدوي الأصل هناك العديد من المقابلات في هذا الشأن. وما زال أولاد الشام كما كنت أعرفهم عندما ترعرعت في تلك المدينة يغنون في الربيع أغان حول النعمان تعكس إلى حد بعيد أسطورة بعل القديمة التي تعود إلى أصول سومرية.

هناك كمية هائلة من المادة المعنية بالتراث الشعبي والحياة اليومية في العهد القديم يمكن بلا تردد مقارنتها بمقابلها عند الفلسطينيين. البعض منها يعكس الحياة الرعوية يمكن مقابلته بنمط الحياة عند البدو في مناطق شاسعة من منطقة الشرق الأدنى وليس بالتحديد عند البدو الفلسطينيين. تعكس هذه المادة حالة مبكرة كان الإسرائيليون القدماء يعيشونها قبل الاندماج مع الكنعانيين في فلسطين أو في المرحلة الأولى من اندماجهم، وهي بعد فصلها عن مواد أخرى، تشبه إلى حد بعيد المصادر العربية، مثلاً "أيام العرب". وأذكر على سبيل المثال أن اوريا، الجنرال الحثي المخلص لسيده داود كان لا يحبذ فكرة ترك داود بدون حراسة خوفا عليه، لأن حاشية داود كانت تحتفل بعيد ما في خيمة في الفلاء أو الصحراء. والإشارات إلى الحياة الرعوية في العهد القديم عديدة جداً، وبالطبع لم تدرس إلا من قبل غربيين الذين لا يستطيعون النفوذ إلى روح هذه الفئات التي ما زالت حديثاً في منطقتنا تمارس هذا النمط من الحياة. وأذكر من البحاثة الغربيين الألماني جوستاف دالمان الذي وضع ما يعادل ألفي صفحة في كتابه "العمل والعادات في فلسطين"؛ وهو مليء بالمقارنات بين التراث الشعبي الفلسطيني ومقابلاته في المصادر القديمة.

لا شك أن هناك استمرارية واضحة بالنسبة لأسماء المواقع الفلسطينية التي انتقلت من لغات في فترات سابقة للكنعانية ومن الكنعانية (والعبرية القديمة تعتبر إحدى لغاتها) إلى الأرامية وبالتالي إلى العربية ليحفظها الفلسطينيون كما سموا قراهم. وهذا موضوع واسع لم يدرس بشكل شامل، وما تزال المهمة تقع على عاتق الفلسطينيين في إعادة الذاكرة المفقودة حديثاً بالنسبة لأسماء المواقع والأراضي وإرجاعها إلى أصولها، بعض الأمثلة فقط: بيتين تعكي بيتيل مع تغيير اللام إلى نون، والموقع الأثري القديم ما زال داخل بيتين.

وأرغب هنا أن أذكر حادثة طريفة حصلت معي عندما زرت بيتين لأول مرة، وكنت أفتش عن موقع الآثار فيها. ومن المعروف أن بيتيل هي في الحقيقة عبارة عن موقعين، الأول بيتيل نفسها الواقعة في مكان مرتفع، والثاني المنخفض هو لوز الذي كان يسكنه ما تسميه التوراة بالحثيين. وعندما كنت هناك وصلت إلى المكان المرتفع وسألت بعض الصبيان عن موقع الآثار القديمة فأجابوني "هناك تحت، عند اللوزات". بيت لحم لا تعني بيت اللحم أو بيت الخبز وإنما "معبد لحم" ولحم إله مذكور في المصادر، وبالتحديد المصادر الرافدية. معظم الأسماء التي تنتهي بألف تعكس إشارة التعريف الأرامية، أي المقابل ل "ال التعريف" العربية، فبيت ريما تعني "بيت الريم" بصرف النظر ماذا تعني كلمة الريم في الأرامية. الكثير من شخصيات العهد القديم ما زالت محفوظة في التراث الشعبي الفلسطيني، وانتقلت على الأغلب بشكل طبيعي من الفترة القديمة إلى المسيحية ومنها إلى الجانب الإسلامي من هذا التراث، وهي صامويل ويوسف وراحيل وداود ويعقوب .. الخ. وأرجعكم إلى ما كتبه توفيق كنعان حول الموضوع. وبتخطى الأمر هذه الشخصيات المعروفة، فهناك مثلاً الشيخ القطرواني، الموجود مقامه في العطارة، يعكس، كما يعتقد توفيق كنعان، قديسة اسمها كاترينا. وهناك بقايا كنيسة في الموقع. غير أن هناك استمرارية بالنسبة لبعض الآلهة الكنعانية كسالم، الذي اعتقد أنه كان الإله الرئيسي للقدس في الألف الثاني قبل الميلاد. فاسمه قد يكون محفوظا في اسم قرية سالم في منطقة نابلس.

انتقل الآن إلى الحضارة المادية، لنأخذ أولاً الفخار مشيراً على سبيل المثال إلى أنه من الصعب التفريق بين الفخار من العصر البرونزي القديم والفخار التقليدي الفلسطيني . وتوجد مقابلات أخرى تعود إلى فترة أقدم كالسقا الجلدي الذي ربما كان يعكس قطعاً حجرية من العصر النحاسي الحجري، أي من الألف الرابع . والقائمة طويلة.

وبالطبع هناك علاقة بين البيوت التقليدية الفلسطينية والبيوت القديمة كما هو معروض في كتاب حول البيوت في منطقة الخليل الذي لم يقم بتأليفه فلسطيني، وإنما إسرائيلي .

كمثال أخر أذكر العظام الحيوانية المأخوذة من ركب الغنم، وهي ما يمكن تسميتها بالكعاب. لقد عثر على مجموعات منها في مواقع أثرية مختلفة أهمها تلك المجموعة من تل تعنك والمحفوظة عندنا في المعهد. وأذكر هذا المثال لأنه غير معروف لدى الآثاريين، ولأننا تمكنا في معهد الآثار من تحديد وظيفة هذه الأكعاب أي غرض ديني أو طقوس كما كان يظن، وإنما هي مجرد قطع تستخدم في ألعاب لها قواعد مختلفة ما زالت تمارس في مناطق شاسعة من الشرق الأدنى: في فلسطين، لبنان، العراق، الجزيرة العربية .

هناك ممارسات سحرية تعرف من منطقة بيت لحم كصب الزيت في الماء لقراءة الطالع وهي تعود إلى أصول قديمة، نعرفها من مصادر كتابية من وادي الرافدين تصف هذه الطقوس. وبالطبع جميع ما له علاقة بالسحر كالتمائم والحجب يعود إلى أصول قديمة، كالأختام من عصور مختلفة، وإن كان جزء من هذا التراث قد حفظته طائفة السامرة الفلسطينية.

وفي النهاية أقول أن ما ذكرته هو مجرد أفكار مدعومة ببعض الأمثلة لفتح آفاق جديدة في البحث في التراث الشعبي والآثار، ولأن يأخذها الباحث بعين الاعتبار ليتمكن من الحفاظ على التراث بدون الانزلاق في مغالطات تصبغها عاطفة اللحظة.